

مقدمة الترجمة العربية

شكّل فهم التاريخ واحدة من القضايا الإشكالية الكبيرة في ثقافة العصر الحديث. ومشكلة فهم التاريخ ليست فيما يُمكن أن نُسَمِّيه: «الحقيقة التاريخية»، أو على الأقل، ليست في «الحقيقة التاريخية» وحدها، ذلك أن العصر الحديث شهد ميلاد نتائج كثيرة جعلت «المادة التاريخية» منطلقاً لدراسات أخرى، ونتائج اتخذت مُكتشفات الآثار تكتة للفصل في مدى دقة بعض ما هو معروف عن التقاطع بين التاريخ والجغرافيا، ونتائج وقفت على الجسر الفاصل بين «تخوم العلوم» حيث يلتقي التاريخ، مثلاً، بالسياسة أو الاقتصاد أو الدين أو العلم أو....

وفي أول سطور كتابه: «الحرية والتنظيم» يقول الفيلسوف البريطاني برتراند راسل: «إن هذا الكتاب محاولة لتتبع الأسباب الرئيسة للتغيير السياسي الذي حدث خلال السنين المائة الواقعة بين 1814 و1914. ويبدو لي أن هذه الأسباب تنقسم إلى ثلاثة أنواع: التطبيق الفني الاقتصادي، والنظريات السياسية، والأفراد المهمين». ومثل هذه الدراسات تحاول -كما يُعبّر راسل- بناء نموذج تفسيري لا يُغفل الطبيعة المركبة (والمتنوعة) للعوامل التي تصنع التاريخ أو حقبة منه، ويُحدّد رغم ذلك، عوامل أكثر تأثيراً تُحدّد «القائمة القصيرة» لصنّاع التاريخ أو حقبة منه.

وهذا الكتاب: «انهيار المجتمعات المعقدة» واحدٌ من الأدبيات المتفردة في مكتبة الكتاب المُترجم إلى العربية، وأتوقع أن يصبح واحداً من أمهات هذه المكتبة، فهو في بابه عمل رائد، ويُعبّر مؤلف الكتاب عن ذلك بقوله: «عندما بدأت هذه الدراسة

لم يكن هناك تفسير عالمي موثوق به للانهييار، حيث لا توجد نظرية قد تساعدنا في فهم وقوعه معظمه أو كله. لقد كانت بالفعل تلك الحالة التي حفزت على كتابة هذا العمل، الذي كان الهدف منه إبدأً هو تطوير تفسير عام للانهييار، قابل للتطبيق في سياقات متعددة، وله مضامين ترتبط بالظروف الحالية، وهذا العمل خاص بعلم الآثار القديمة والتاريخ، ولكن بصورة أساسية متعلق أكثر بالنظرية الاجتماعية».

والكتاب، أيضًا، يتسم في محتواه بثناء استثنائي في المعطيات والتحليلات، أما ترجمته العربية فتؤهله لأن يحقق انتشارًا كبيرًا يتجاوز دائرة المتخصصين.

في الكتاب يُقرّر المؤلف أن فهم الانهييار «لا يقل تنويرًا عن سقوط الأمم والإمبراطوريات. فأى تفسير للانهييار يُفهم منه معنى عام لا بد أنه سيساعدنا في فهم الطيف الكامل لظواهره من الأبسط إلى الأكثر تعقيدًا. وهذه بالفعل واحدة من النقاط المركزية والأهداف لهذا العمل». ومن الأفكار الملهمة الكثيرة الواردة في الكتاب قول المؤلف متحدثًا عن القرن العشرين: «من بين كل التغييرات التي جاء بها القرن العشرون، لم يترسخ شيء كما ترسخ اختفاء الإيمان الأعمى بالمستقبل والقيمة المطلقة لحضارتنا، وهو ما كان العلامة السائدة في القرن العشرين»!!!

واختفاء الإيمان الأعمى بالمستقبل ترافق معه، حسب الكتاب: «ورغم أن الاهتمام بالانهييار بدأ منذ أن ثبت أن المجتمعات غير حصينة، فقد كان لغزًا صعبًا للمؤرخين وعلماء الاجتماع»، «وفي المجمل تميز التاريخ الإنساني بمنحى لا يلين نحو مستويات أعلى من التعقيد، والتخصص والسيطرة السياسية الاجتماعية، وتصنيع ومعالجة كميات أعظم من الطاقة والمعلومات، وتكوين مستوطنات أكبر من سابقاتها، وتطوير تقنيات أكثر تعقيدًا وأكثر قدرة. هذا المظهر المستمر لتاريخنا نال بصدق كمًا هائلًا من الأبحاث، وهكذا بدأنا اليوم في فهم كيف حدث هذا. إلا أن الأمثلة التي حدثت عند اختلال هذا التوجيه -الذي يكاد يكون عالميًا- نتيجة للانهييار لم تنل مستوى مماثلًا من الاهتمام. وبالتأكيد، فإن عددًا لا يُحصى من الكُتّاب قدموا تفسيرات كثيرة جدًّا للانهييار، لكن حتى مع هذا، ظل فهم التفكك يحظى باهتمام ضئيل في

العلوم الاجتماعية بشكل واضح. وقد مالت تفسيرات الانهيار لأن تكون «مخصصة لغرض معين ad hoc»، مُتعلِّقة فقط بمجتمع أو مجتمعات قليلة؛ ولذا ظل الفهم العام أمرًا مراوغًا صعب الإدراك. وفي الوقت نفسه، وكما سنعرض لاحقًا، فقد عانت تلك التفسيرات بالجملة من عدد من الإخفاقات الفكرية والمنطقية».

والكتاب يحمل رسالة تبلغ الغاية في الأهمية هي أن، تفسيرات التاريخ والرؤى الاستشراقية للتاريخ على السواء، التي أسسها أصحابها على «أفكار مسبقة» (أيًا كانت طبيعتها) أثمرت قناعات متفائلة بلا موجب أو متشائمة بلا مبرر، وُبيّنت على أحكام قطعية لم تخضع لاختبار منهجي حقيقي، وأحد الخلاصات المهمة التي يسوقها تايتر قوله: «والمضمون واضح: إن الحضارة هشة، غير دائمة. وهذه الحقيقة حازت على اهتمامنا ولا بد، ورغم أننا لا نفضل ذلك فإنها طرحت أسئلة مزعجة: هل المجتمعات الحديثة غير معنية بشكل مشابه؟»، ويضيف تايتر: «ويُفضّل العديد بالطبع الاعتقاد بأن الحضارة الحديثة، بقدراتها العلمية والتقنية ومصادر طاقتها، ومعارفها الاقتصادية والتاريخية، ستستطيع النجاة من أي أزمة واجهتها مجتمعات قديمة أكثر بساطة ولم تستطع التغلب عليها. لكن ما مدى ثبات هذا الاعتقاد؟»

ومن القضايا التي لفتت نظري في الكتاب تأثير «الأدب الشعبي» واسع الانتشار في الصورة الذهنية لفكرة الانهيار، وكذلك القيم الأخلاقية المتضمنة فيها، فقد «أنشأ الكُتّاب الشعبيون ومنتجو الأفلام صورة متسقة لكيف ستبدو الحياة بعد انهيار المجتمع الصناعي، ومع بعض الاختلاف تبدو الصورة الناشئة صورة هوبزية لحرب الكل ضد الكل، فتمتد ظروف الإك عالميًا، حيث ينجو الأقوياء فقط ويصبح الضعفاء ضحايا، ويسرقون ويقتلون. فهناك حرب على الطعام والوقود، وحيثما بقيت سلطة مركزية فإنها تفتقر إلى الموارد التي تجعلها قادرة على إعادة فرض النظام، وهناك جماعات من الناجين المرضى المثيرين للشفقة يتقممون بين أطلال العظمة الغابرة، حيث تنمو الحشائش في الطرقات، ولا يوجد هدف أسمى من البقاء على قيد الحياة، وسيتعرف أي أحد قرأ أدب الكوارث الحديث أو شاهده دراميًا على هذا السيناريو، فقد أسهم بصورة كبيرة للغاية في الفهم السائد للانهيار».

وفي مواجهة حالة متفشية عالمياً مدارها «تقديس الدولة» والتعامل معها بوصفها الحالة الفطرية للاجتماع الإنساني، رغم أن الدولة حالة شاذة في التاريخ، يقول تاينتر: «لا يدرك مواطنو المجتمعات المعقدة المعاصرة أننا حالة شاذة في التاريخ، فعبّر ملايين عدة من السنين أدركنا أن الإنسان قد عاش في عالم كانت الوحدة السياسية الشائعة فيه صغيرة، تحكم نفسها بنفسها، وتتصرف باستقلالية، ومكتفية ذاتياً بشكل كبير. وقد قدّر «روبرت كارنو» أن 99,8% من التاريخ البشري كانت تسوده تلك المجتمعات المحلية التي تحكم نفسها ذاتياً. فقط في خلال الستة آلاف سنة الأخيرة بدأ شيء غير مألوف في الظهور: الدول التراتبية، المنظمة، المستقلة التي هي المرجع الرئيسي لخبرتنا السياسية المعاصرة. وتميل المجتمعات المعقدة بمجرد تأسيسها إلى التمدد والسيطرة؛ لذا فهي اليوم تتحكم في معظم أراضي الكوكب وفي معظم الناس، وهي منشغلة البال على الدوام بأولئك الذين هم بعيدين عن متناول يدها. وتنشأ الحيرة من هذه المسألة: فنحن اليوم اعتدنا بصورة رئيسة على أشكال سياسية تعد شذوذاً في التاريخ، وفيما ننظر لهذه الأشكال السياسية على أنها أمر طبيعي، فقد اعتبرنا أن غالبية التجربة البشرية أمر مخالف دخيل. إنها مفاجأة صغيرة أننا ننظر إلى الانهيار بكل تلك الخشية». ويضيف تاينتر: «وقد عانى الأنثروبولوجيون من بعض الصعوبات في تحديد مفهوم «الدولة»، فهي تبدو بوضوح شيئاً مختلفاً عن المجتمعات الإنسانية الأبسط التي بلا رأس، إلا أن تخصيص هذا الاختلاف وإحصاءه أثبت أنه هدف مراوغ. ورغم هذه الصعوبة، أصر العديد من الأنثروبولوجيين على أن الدول هي نوع من المجتمعات المختلفة كميّاً، حيث يمثل الانتقال من المجتمعات القبليّة إلى الدولة «الانقسام العظيم» في التاريخ البشري»!!

الفكرة الأكثر إثارة للدهشة في الكتاب، هي في تقديري، قول تاينتر: «تتمركز المجتمعات المعقدة حول مركزٍ ما، من الممكن ألا يقع فعليّاً في المركز الجغرافي، إلا أنه المصدر الرمزي لهيكل المجتمع. فهو ليس الموقع الذي تقع فيه المؤسسات الحكومية والقضائية، ولكنه مصدر النظام، ورمز السلطة الأخلاقية والاستمرارية الاجتماعية. ويتشارك المركز في طبيعته مع طبيعة المقدس، وبهذا المعنى فإن لكل

مجتمع معقد ديانة رسمية». ويضيف تايتر: «ولا تكون السلطة الأخلاقية والهالة المقدسة للمركز ضروريتان فقط لاستمرار المجتمعات المعقدة، ولكنهما حاسمتان في ظهور تلك المجتمعات»، «وتصبح العقوبات الما وراء طبيعية بعد ذلك رد فعل على ضغوطات التغيير من مجتمع قائم على القرابة والنسب إلى مجتمع مترابك طبقيًا. وربما تصبح تلك العقوبات ضرورية جزئيًا عن طريق تركيز قوى القمع غير الفعالة في المجتمعات المعقدة الناشئة. ويوفر إقرار الشرعية المقدس إطارًا متماسكًا حتى تتوحد أركان وسائط السلطة الحقيقية. وبمجرد تحقق ذلك تقل الحاجة إلى التكامل الديني، وبالفعل قد يندلع بعد ذلك صراع بين السلطات الدنيوية والدينية، وكما ذكرنا فإن الهالة المقدسة للمركز لا تتلاشى أبدًا، حتى مع وجود حكومات علمانية معاصرة، ويستغل السياسيون الدهاء هذه الحقيقة، فهي عنصر حرج وحاسم في الحفاظ على الشرعية».

و«الشرعية عامل متكرر في الدراسة المعاصرة لطبيعة المجتمعات المعقدة، وهي مرتبطة بفهم انهيارها». و«رغم بنية السلطة المؤسسية، والأساس الأيديولوجي واحتكار القوة، فإن حُكَّام الدول يتشاركون في شيء واحدٍ على الأقل مع زعماء القبائل والرجال الكبار، وهو الحاجة إلى تأسيس الشرعية وتقويتها بصورة مستمرة. ففي المجتمعات المعقدة، كما في المجتمعات البسيطة، تُكرِّس أنشطة القيادة والموارد المجتمعية لهذا الغرض، فلا يوجد شكل مجتمعي بعيد عن الاحتياج إلى شرعنة مركزه وسياسته، ولا يستطيع مجتمع ترابي أن ينظم بدون نص مُفسَّر لهذا الاحتياج»!!!

إن الكتاب -كما قرأته في نصه العربي- شهادة ميلاد لمترجم مُتمكِّن هو أمير عثمان، وقد وُفِّق في اختيار كتابه الأول، ونجح بجدارة في تقديم ترجمة عربية متميزة، وبفضل ثراء محتواه سيكون الكتاب إضافة حقيقية لحقول عدة تشمل التاريخ والآثار والعلوم السياسية وغيرها.

ممدوح الشيخ

30/11/2018